إنها لن تنتظر إلا سماع الأمر فقط . وساعة تسمع الأمر فهى تنفعل ، ومعنى تنفعل أى تطيع . وكل الكون مطيع لخالقه سبحانه وتعالى . أو يكون معنى هل يستطيع : هل يفعل . وذلك من باب التعبير عن المسبب بالسبب ؛ إذ الاستطاعة من أسباب إيجاد الفعل . وقيل المراد : هل تستطيع سؤال ربك من غير صارف ولا مانع يمنعك عن سؤاله ؟ فقد قرأ الكسائى وغيره هل تستطيع ربَّك بنصب كلمة (ربك) وأصلها هل تستطيع سؤال ربك ، فحذف المضاف (سؤال) وأقيم المضاف إليه وهو كلمة رب مقامه فنصب. وقال الزمخشرى : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكى ادعاءهم . وقولهم : (هل يستطيع) كلام لا يتأتى مثله من مؤمنين معظمين لربهم .

وقال الحواريون ما جاء به القرآن الكريم :

﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

وكأنهم أرادوا أن يتشبهوا بسيدنا إبراهيم خليل الرحمن عندما سأل الله عن كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه . لقد آمنوا بعلم اليقين ، ويريدون الآن الانتقال إلى عين اليقين ؛ لذلك سألوا عن المائدة التى صارت بعد ذلك حقيقة واضحة .

وهكذا نعرف أن هناك فارقا بين أن يؤمن الإنسان بذاته ، وأن يشهد بالإيمان عند غيره . فالذى يشهد بالإيمان عند غيره يحتاج إلى يقين أعمق .

ويخبرنا الحق بما قاله عيسى عليه السلام ـ وهو يختلف عن قولهم فى هذه المائدة ـ قال سبحانه :

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

وقوله الحق : « مائدة من السماء » إنما يعنى أن هناك لله موائد منصوبة فى الأرض . والكون كله مائدة فيها من الخير الكثير إن استطاع الإنسان أن يكد ويكدح .

والإنسان منا عندما يكد ويكدح ويستخرج من الأرض الزرع ويرعى الحيوانات فإنه يأتى إلى زوجه بمخزون قد يكفيهم كأسرة لمدة عام من دقيق وأرز وعسل وسكر وزيت ، فتأخذ الزوجة طيراً فتذبحه وتطهو معه الخبز والخضراوات .

إذن فالكون كله مائدة الله المنصوبة والتى يأخذ منها كل إنسان على قدر عمله . وكلمة « مائدة » لا تطلق إلا على الخوان وعليه طعام . أما إن كانت بغير طعام فنطلق عليها « خواناً » ؛ لأن « المائدة » مأخوذة من مادة « الميم والألف والدال » والمائدة تميد أى تضطرب من كثرة ما عليها من أشياء . أو هى تعطى مما عليها من أشياء . فالمائد هو المُعْطى .

وقول عيسى عليه السلام يمتلىء بكل المعانى القيمة ، فهو يطلب أن تكون المائدة مناسبة لعيد يفرح به الأولون والآخرون وآية من الحق سبحانه وتعالى ، ويطلب من فضل ربوبية الرازق أن يرزقهم ، ويعترف بامتنان أن الحق هو خير الرازقين .

والمقارنة بين قول الحواريين وقول عيسى تدلنا على الفارق بين إيمان المبلغ عن الله ، وإيمان الذين تلقوا البلاغ عن عيسى . إيمان عيسى هو الإيمان القوى الناضج . أما إيمان الحواريين فهو إيمان ناقص ، لقد كانت قوة إيمان عيسى نابعة من أنه يتلقى عن الله مباشرة ، أما الحواريون فليسوا كذلك ، على الرغم من أنهم آمنوا بالبلاغ

عن الله وتم ذلك بواسطة رسول ، ولذلك يعلو الرسول على المؤمنين ببلاغه فى سلم الإيمان درجة أعلى . إنه يتلقى عن الله ، ولهذا صحح عيسى عليه السلام طلبهم من الله وهو يدعو ربه .

إنه رسول مُصطفى مُجتَبى ؛ لذلك يضع الأمور فى نصابها اللائق فيقول : « اللهم ربنا » و« اللهم » هى فى الأصل « ياالله » ، وعندما كثر النداء بها حذفنا منها حرف النداء وعوضناه بالميم فى آخرها ، فصارت : « اللهم » . وكأن هذا اللفظ : « اللهم » تتهيأ به نفس الإنسان لمناجاة الله فى تقديس وثقة فى أنه سبحانه يستجيب ، وهو نداء يقوم على عشق العبد لمولاه ، فلا يوسط بينه وبين اسم ربه أى حرف من حروف النداء .

إننا نلحظ أن عيسى عليه السلام قدم كلامه لله بصفة الألوهية : « اللهم » فهو كنبى مرسل يعلم تجليات صفة الله . وهى تجليات عبادة من معبود إلى عابد . أما تجليات كلمة « رب » فهى تجليات تربية من رب إلى مربوب ، والفارق بين عطاء الألوهية للخلق ، وعطاء الربوبية ، هو أن عطاء الألوهية تكليف من معبود إلى عابد . والعابد يطيع المعبود فيما يأمر به وفيما ينهى عنه ، أما عطاء الربوبية فهو سبحانه المتولى للتربية للأجسام والعقول والمواهب والقلوب ، والرب هو رب للمؤمن وللكافر . ويتولى الرب تربية الكافر على الرغم من إنكار الكافر للألوهية . فسبحانه يربى الماديات التى تقيم حياته .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول عن هؤلاء الكافرين :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة لقمان)

والحق سبحانه يبلغ نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأل الكفار عمن خلق السموات والأرض ، ولن يجدوا إجابة على ذلك إلا قولهم : إن الله هو الخالق . وهى إجابة الفطرة الأولى . ونرى فى حياتنا أكثر من مثل على ذلك ـ ولله المثل

الأعلى ـ عندما يسأل الأطفال عن شيء من الذى أحضره ؟ فإننا نجد الإجابات تتسلسل إلى أن تصل إلى أن معطى كل شيء هو الله ، فإن سأل الطفل أمه : ماذا سنأكل ؟ وتجيب الأم ـ على سبيل المثال ـ سنأكل بامية مثلاً . ويسأل الطفل : من أين ؟ تجيب الأم : اشتراها والدك من بائع الخضر . ويسأل الطفل : ومن أين جاء بها بائع الخضر ؟ تقول : الأم : من تاجر فى السوق . يسأل الطفل : ومن أين جاء بها التاجر ؟ تجيب الأم : من الفلاح الذى حرث الأرض وبذر فيها بذور البامية . يقول الطفل : من ألذى خلق الأرض وأنبت النبات ؟ تقول الأم : إنه الله ربنا خالق كل شيء .

لقد وصلت الأم بحوارها مع الطفل إلى عطاء الربوبية الذى يستوى فيه المؤمن والكافر ، والمؤمن هو الذى يأخذ بجانب عطاء الربوبية عطاء الألوهية أيضاً ، وهو التكليف . فعطاء الألوهية يعطى المؤمن عطاء الربوبية مضافاً إليه العطاء الذى لا ينفد ، إنه يعطى المؤمن زمانا لا يموت فيه ونعمة لا يتركها ولا تتركه ، ويأخذ المؤمن بالمنهج يقين الإشراق والإقبال على العمل فى ضوء منهج الله .

لقد قال عيسى ابن مريم داعياً الله : « اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء » وألزم عيسى نفسه بنداء الألوهية أولاً معترفاً بالعبودية لله ملتزماً بالتكليف القادم منه ثم جاء بنداء الربوبية . فيا من أنزلت علينا التكليف ويا من تتولى تربيتنا نحن ندعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء . وأخذ نداءه زاوية القيم ثم زاوية المادية وهى الرزق ، لكنْ الحواريين قدموا بشريتهم فطلبوا من المائدة الأكل والطعام فقالوا : (نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين) ، أما عيسى ابن مريم بصفائية اختياره رسولاً فقد أخر الطعام عن القيم فقال : (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) .

صحيح أن الرزق يمس الأكل ، ولكن الرزق ليس كله أكلاً . فالرزق هو كل شيء تحتاج إليه وتنتفع به ، فالأكل رزق ، والشرب رزق ، والملبس رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، وكل شيء تنتفع به هو رزق من عند الله ، ولذلك جاء عيسى

بالكلمة العامة التى يدخل فيها الأكل وتتسع لغيره . ويجيب الحق على دعاء عيسى ابن مريم :

﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥ ﴾

وساعة يقول الحق : « إنى » فهو يستخدم نون الإفراد . ونعلم أن هناك أسلوبين لحديث الحق سبحانه عن نفسه . إنه ساعة يتحدث عن وحدانيته يأتى بنون الإفراد فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وساعة يتحدث سبحانه وتعالى عن سيال القدرة الشاملة العامة لكل صفات الكمال التى تتطلب إيجاد الشيء يأتى بنون التعظيم فيقول :

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾

(سورة الحجر)

وهو سبحانه أراد هنا أن يعطينا معنى التوحيد فقال : (قال إنى منزلها عليكم) . ذلك أن المائدة ستنزل من السماء ، ولا يقدر على ذلك إلا الله وحده سبحانه وتعالى .

ويتبع الحق ذلك بقوله : « فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين » . فسبحانه يرسل رسله بعد أن يجتبيهم ، وإياك أيها العبد أن تقول : إن فلاناً بذاته من الرسل أفضل من فلان ؛ لأن الحق هو الأعلم برسله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . وعلينا أن نتبع الرسل ، وعندما حاول بعض من أهل

الجاهلية التعجب من شأن القرآن الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم كما يخبر القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢ ﴾

(سورة الزخرف)

وقال أهل الجاهلية : لماذا لم ينزل القرآن على رجل عظيم من مكة أو من الطائف؟! قالوا ذلك استهزاء بشأن محمد صلى الله عليه وسلم . وقال الحق سبحانه وتعالى فى ذلك القول الفصل ، فليس لأحد أن يختار الرسول ؛ لأن الرسول مُصطفى من الله ، ولا يملك أحد من البشر أن يختار رسولاً من أصحاب السلطان أو الجاه .

وسبحانه وتعالى يعد كل رسول الإعداد اللائق لمهمته ، ومقام الرسالة والنبوة هو الأعلى فى الدنيا والآخرة . والحق سبحانه ـ وهو المنظم لأمور خلقه ـ قسّم المواهب ـ رحمة منه ـ فيما بين العباد ليتساندوا ويتآزروا ويحتاج كل منهم إلى عمل الآخر . وحين يرسل سبحانه رسولاً فهو يختار الآية المناسبة له وللعصر الذى جاء فيه ، وما اقترح قوم آية وجاء بها الله ، ثم لم يؤمن الذين اقترحوا الآية بعد مجيئها إلاّ أنزل الحق سبحانه بهم العذاب الأليم . وحين يطلب اتباع الرسول آيات معينة ، إنما يحمل هذا الطلب فى طياته التفلّت والتحلل من الالتزام بمنهج الله ، كأن الذين يطلبونها يصرون على الكفر بالرسول على الرغم من طلبهم الآية ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩ ﴾

(سورة الإسراء)

وكذلك اقترح قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآيات غير آيات القرآن ، على الرغم من أن آيات القرآن تقنع كل من له عقل يفكر وقلب يحس ،

وسنة الله مع الذين يطلبون الآيات ثم لا يؤمنون بها واضحة وهى العذاب الشديد ، ومثال ذلك قوم ثمود الذين طلبوا ناقة للدلالة على صدق رسالة صالح عليه السلام ، وعندما حدثت المعجزة كفروا بها فعاقبهم الله شر العقاب .

وبعض من قوم الرسول صلى الله عليه وسلم غالوا فى طلب آيات غريبة :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ
وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا
أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ
وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا
بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وكان محمد صلى الله عليه وسلم رحيماً بآله وعشيرته ، لذلك لم يطلب من الحق آيات غير التى أنزلها الله عليه . وعيسى عليه السلام دعا بأدب الرسل أن ينزل المائدة . واختلف العلماء أأنزل الحق سبحانه وتعالى المائدة أم لم ينزلها ؟ .

إن هناك من تمسكوا بقول الحق سبحانه : « قال الله إنى منزلها » ، وهناك من قالوا : إن الحق سبحانه وضع شرطاً لنزول المائدة ، وهو إنزال العذاب بهم إن لم يؤمنوا ، فتراجعوا عن طلب إنزالها ومن قالوا بنزول المائدة اختلفوا فى مواصفاتها ، فمنهم من قال : إن المائدة نزلت وعليها سمكة مشوية من غير فلوس وقشور ولا شوك فيها ؛ ذلك أنها مائدة من السماء ومعها خمسة أرغفة ، وعلى كل رغيف شىء مما يعرفون : رغيف عليه عسل ، وآخر عليه زيتون ، وثالث عليه سمن ، ورابع عليه جبن ، وخامس عليه قديد من اللحم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

ونعرف أن هذا هو الحوار الذى سوف يدور بين الحق وبين عيسى ابن مريم عليه السلام يوم يجمع الحق سبحانه وتعالى الرسل :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقد يقول قائل : ولماذا جاء الحق سبحانه وتعالى بهذا الحوار فى صيغة الفعل الماضى ؟ :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

وكلنا يعرف أن لكل حدث زمناً ومكاناً . وزمان الحدث هو يوم القيامة . ومكان هذا الحدث فى ساحة المشهد والحشر ، وسبحانه هو خالق كل زمن وكل مكان ، وله أن يتحدث عن أى أمر بأى صيغة شاء ، سواء أكانت صيغة الماضى أم الحاضر أم المستقبل ، فقد أوجد كل شىء من ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل ، وبيده أمر كل ما خلق ومَن خلق . وهو أزلى قيوم ، أما نحن بنو الإنسان فأمر الزمن يختلف ، الزمن بالنسبة لأفعالنا هو واحد من ثلاثة ؛ ماضٍ : أى أن يكون الحدث قد وقع قبل أن أتكلم ؛ مثل قولى « قابلنى زيد » ، ومعنى ذلك أن الفعل قد تم وصار محققاً .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وحاضر : أى أن يكون الحدث فى حالة وقوعه ، أى يحصل الآن مثل قولى : « يقابلنى زيد » وأنت تقصد الحال أى أنه يقابلنى الآن .

إن معنى ذلك أن العين ترى زيداً وليس مع العين أين . ومستقبل : أى أن يكون الحادث سوف يقع كقولى: « سيقابلنى زيد » . وهنا لا يملك الإنسان نفسه أن يحدث منه الحدث ، ولا يملك ألا يقع على الإنسان الذى سوف يقابله أمرٌ قد يمنعه من إتمام الحدث ، ولا يملك الإنسان أن يظل السبب للمقابلة قائماً . إذن فمع المستقبل لا يصح للإنسان أن يحكم بشىء ، لأنه لا يملك أى عنصر من عناصر الحدث . والذى يملك هذا هو الحق سبحانه وتعالى وحده . ولذلك يعلمنا القرآن شرف الصدق فى الكلمة بقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(الآية ٢٣ وجزء من ٢٤ سورة الكهف)

وعلى الإنسان أن يحترم قدرته المحدودة ، وأن يتذكر دائماً قدرة الحق سبحانه وتعالى عليه . وهذا لا يعنى أن الحق سبحانه يمنعنا من التخطيط للمستقبل ، لا ، بل يطلب منا أن نخطط وأن ندرس كل الاحتمالات ، وعلينا أن نقول : « إن شاء الله » ؛ لأننا بذلك نقدم مشيئة مَن يملك كل أمر وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

•

وقد حاول بعض المستشرقين من أعداء الإسلام أن ينفذوا بسمومهم إلى عقول المسلمين بالتساؤل عن عدم ترتيب الأفعال على نسق حدوثها فى بعض من آيات القرآن ، فقال قائل منهم : كيف يقول الحق ـ سبحانه ـ :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ ﴾

(سورة النحل)

وهذا خبر عن يوم القيامة فكيف يأتى به الله على صيغة الماضى ، ثم يقول بعد ذلك : « فلا تستعجلوه » ؟ واستعجال الشىء لا يكون إلاّ إذا لم يكن قد حدث ، فكأن فى الكلام تناقضاً ، ذلك لأنه يقول : أتى ، ويقول بعد ذلك:فلا تستعجلوه ؟

ونقول : إن الذى يتكلم هو الحق سبحانه وتعالى وليس إنساناً مثلك محكوماً بأزمانه . بل المتكلم هو صاحب كل الأزمان وخالقها . وعندما يقول سبحانه : « أتى

أمر الله » فمعنى ذلك أن أمر الله آتٍ لا محالة ، لأنه لا قدرة تخرج مراده على ألاّ يكون . وأى فعل من الحق سبحانه وتعالى إنما يتجرد عن ملابسات الزمان وعن ملابسات المكان ، فإن كنا نقرأ على سبيل المثال قوله تعالى :

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة النساء)

فليس معنى ذلك أن مغفرة الله ورحمته قد مضى زمانها وانقضى وقتها . ولكن لنقل : كان الله غفوراً رحيماً ولا يزال غفوراً رحيماً ، فسبحانه وتعالى غفور ورحيم قبل أن يوجد من يغفر له ويرحمه ، ومن باب أولى يكون غفورا رحيما بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة . وسبحانه منزه عن أن تعتريه الأحداث فيتغير ؛ لأن الزمن مخلوق من الله ، فلا تقل متى أو أين ؛ لأنهما به وجدا . والحق يأتى بالماضى لأنه متحقق الوقوع ، ليثبت حدوث أمر لم يحدث بعد ، ذلك لأن الله إذا قال عن شىء إنه سيحدث فلا بد أن يحدث .

ويؤكد الحق سبحانه فى أى كلام عن عيسى ابن مريم على أنه « ابن مريم » وهنا يسأل الحق عيسى ـ عليه السلام ـ : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » ونعرف أن السؤال إنما يأتى دائماً على وجهين : إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجهله فيريد أن يعلمه من المسئول ، كقول القائل : أقابلك فلان أمس ؟ وإما أن يأتى السؤال لا ليعلم السائل من المسئول ، ولكن ليقرر السائلُ المسئولَ .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ يسأل التلميذ أستاذه ليتعلم منه وليخبره الأستاذ بعلم جديد وخبر جديد . وأيضاً يسأل الأستاذ التلميذ ليقرره بالحقيقة ويوافقه عليها لتستقر لدى التلميذ . وسؤال الله عيسى من النوع الأخير ؛ ليكون ذلك حجة على من قال بألوهية عيسى أو بنوته لله . وحاول بعض المستشرقين أن يشككوافى القرآن فقالوا : إن هناك تناقضاً فى القرآن ـ والعياذ بالله ـ واستندوا على ذلك بقول الحق :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أن الحق يقرر أن كل كائن مسئول عما يفعل ويعتقد ، ولكنه سبحانه يقول فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فهل معنى ذلك أنهم لن يُسألوا ؟ لا ، بل سوف يُسألون ليقرروا ما فعلوا لا ليعلم الله منهم ما فعلوا ، فهو سبحانه عليم بكل شيء . وهؤلاء المستشرقون لا يعلمون أن السؤال يرد عند العرب على وجهين ، وجه ليعلم السائل ، ووجه ليقرر المسئول ، وسؤال الحق للناس يوم القيامة ليقرروا ما فعلوا وما كان منهم ؛ لأن الإقرار سيد الأدلة ، وليس سؤال الحق سبحانه هو سؤال من يرغب فى أن يعلم فسبحانه عليم بكل شيء ، وعلى الإنسان أن يحتفظ بالمقام الذى وضعه فيه ربه ، وكذلك كان عيسى ابن مريم . وكذلك يكون سؤال الله لعيسى ، إنه لتقريع وتأنيب وتوبيخ من قالوا عن عيسى ما لم يبلغهم إياه .

إن عيسى عليه السلام لم يبلغهم ولم يطلب منهم أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله ؛ لأن عيسى ابن مريم ، إنما يبلغ ما أُوحى إليه من ربه فقط ، ولهذا تأتى إجابة عيسى رداً على أى تزَيُّد من الأتباع : « قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » وساعة نسمع « سبحانك » فلنعرف أنها إجمال التنزيه لله ، وهو تنزيه أن يشابهه خلق من خلق الله ، فلله وجود ، وللإنسان وجود ، ولكن إياك أيها الإنسان أن تقول : إن وجودى كوجود الله ؛ لأن وجود الله ذاتى ، ووجودك غير ذاتى وكل ما فيك موهوب لك من الله ؛ لذلك فلا غناك مثل غنى الله ، بل غناه ذاتى وغناك موهوب منه سبحانه ، ولا أى صفة من صفاتك كصفات الله ، فله سبحانه مطلق القدرة والقوة ، وعليك أن تأخذ كل شيء يتعلق بالله فى نطاق « سبحانه » « وليس كمثله شيء » .

وكذلك يكون تنزيه عيسى لربه وخالقه : « سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » فعيسى ابن مريم يعلم أن الرسول المصطفى من الله ليس له أن يقول إنه إله . ويرد عيسى على ذلك بقضية متفق عليها : « إن كنت قلته فقد علمته » لأن الكل متفق على أن الله يعلم كل ما يبدر من العباد من سلوك وأقوال وأفعال « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » . والكل يعلم ارتفاع الحق وتنزهه عن أن يوجد له معلوم جديد لم يعلمه من قبل . والكل يعلم ـ كذلك ـ أن الله يعلم خفايا الصدور ؛ لذلك يقول عيسى : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » ويقرر أن الحق

العليم بكل شيء يعلم أن ذلك لم يخطر له على بال ، وهذه هى العلة فى إيراد ثلاث صور فى هذه الآية .

الصورة الأولى هى قوله سبحانه وتعالى : « سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » وهذا تنزيه من عيسى لربه،والصورة الثانية هى قول عيسى : « إن كنت قلته فقد علمته » ، والصورة الثالثة هى : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » . إذن فلا شيء من عند عيسى ، وقد يسأل سائل : وماذا يكون فى النفس ؟ الذى يكون فى النفس هو ما أسِرَّ به ولم يظهر ؛ لأن النفس تُطلق مرة ويراد بها الذات التى تضم الروح والجسد معا ، وعندما تُطلق على ذات الله فنحن ننزهها عن أن تكون أبعاضاً ، ولكنها ذاته المأخوذة فى نطاق التنزيه . والمثال هو قول الحق :

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنعام)

وهكذا يكون فهمنا لمجيء كلمة « نفس » منسوبة لله ، إنه المنزه أن يكون مثلنا ، فلله وجه ولنا وجه ، ولكن وجه الله نفهمه فى نطاق « ليس كمثله شيء » وكذلك يد الله وكذلك كل صفات الله . ونعلم أن لله أسماء أعلمنا ببعضها ، وعَلَّم بعضاً من خلقه بعضها ، واستأثر ببعضها لذاته . وهناك بعض من الصفات لله تأتى لمجرد المشاكلة ، كقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة النساء)

ولا نقول أبداً : إن الله مخادع ، ولكن الصفة هنا جاءت للمشاكلة لذكرها فى مقابلة يخادعون الله . ولذلك لا نأخذ منها اسماً لله ، بل إنه جاء للرد على ما يبدر من أعداء الله .

ويختم عيسى ابن مريم قوله : « إنك أنت علّام الغيوب » و« علّام » هى مبالغة فى ذات الحدث ، ومبالغة فى تكرير الحدث ، فهو سبحانه يعلم غيب كل واحد من خلقه وغيب كل ما فى كونه ، وهكذا جاء القرآن برد عيسى عليه السلام وهو رد يستوعب كل مجالات الإنكار على الذين قالوا مثل هذا القول .

ويتابع القرآن على لسان عيسى عليه السلام ما يناقض ما قاله بعض من أتباعه

فيقول :

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

لقد عرض سيدنا عيسى عليه السلام ـ من خلال قوله لربه تبارك وتعالى ـ المنهج الذى جاء به على الناس جميعا وبلغه تمام البلاغ ، فقد أبلغ أنه عبد الله وأنه رسوله ، ومادام الحق علّام الغيوب فهو أعلم بكل شىء حتى بما فى النفس ، كأنه يثبت أيضاً أن نفسه لم تحدثه بأى خاطر من تلك الخواطر . ويعلن أنه لم يبلغ إلا ما أمر به الله .

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

والشهيد هو الرائى الذى لا عمل له فى تحريك المشهود إلى غير ما شهده .

ويقول عيسى ابن مريم عليه السلام : « فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم » وأمر توفية الحق لرسالة عيسى ورفعه إليه ، قد ذكرناه من قبل فى خواطرنا ولكن أضيف الآن بعضاً من اللمحات ؛ لأنى أرى أنّ من حق كل قارىء أو متلق لهذه الخواطر أن يجد الخلاصة الملائمة التى تغنيه عن الرجوع إلى ما سبق من قول فى هذا الأمر ، وذلك حتى تتصل المعانى فى ذهن القارىء .

لقد كان لميلاد عيسى عليه السلام ضجة ، وكذلك كان لمسألة توفّى الله له ضجة . ولقد شبه الله لقتلة عيسى أنهم قتلوه ، فعندما أرادوا أن يقتلوه دخل خوخة ،

والخوخة هي باب في باب ، وهذا نظام البيوت القديمة حيث يوجد باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة وفي هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد . وفي سقف هذا البيت فتحة . وعندما دخل رجل يدعى « تطيانوس » طالباً لعيسى عليه السلام نظر عيسى لأعلى ووجد شيئاً قد رفعه ، واستبطأ القوم تطيانوس وخرج عليهم من بعد ذلك ، فتساءلوا : إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين تطيانوس ؟

إذن فقد اختلط عليهم الشبه بعد أن ألقى الله شبه عيسى على تطيانوس . أو أن عيسى حينما دخلوا عليه كان معه الحواريون وقال عيسى للحواريين : أيكم يُلقى شبهي عليه وله الجنة ؟ . وكان كل حواري يعلم أنه لا رسالة له مثل عيسى عليه السلام ، فماذا إذن يريد الحواري لنفسه أكثر من الجنة ؟ . وتقدم « سرخس » فألقى عليه شبه المسيح عليه السلام وقتل اليهود سرخس . أو أن الذين ذهبوا لقتل عيسى وعرفوا أنه رفع فخافوا أن تنتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا به ، ولهذا جاء القتلة بشخص وقتلوه . أو أن القتيل هو واحد ممن باعوا عيسى لليهود وتيقظت في نفسه ملكة التوبة فقدم نفسه بدلاً وفداءً للرسول .

ومسألة التوفي ـ كما نعلم ـ هي الأخذ كاملاً دون نقض للبنية بالقتل ، ونحن ـ المسلمين ـ نعرف أن الحق رفع محمداً صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمعراج إلى السموات وعاد إلينا مرة أخرى ليكمل رسالته ؛ لذلك نصدق أمر رفع عيسى وأن الله توفاه ، أي استرده كاملاً دون نقض للبنية ، وأنه سيعود مرة أخرى ليصلي خلف مؤمن بالله وبمحمد رسول الله .

وإن أمر الرفع في الإسلام مقبول . فقد رفع الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمعراج ، ودار بينه وبين إبراهيم عليه السلام حوار ، وكذلك دار حوار بينه وبين يحيى عليه السلام ، وآدم عليه السلام وغيرهم من الأنبياء ، وفرض الحق الصلاة على أمة المسلمين في تلك الرحلة .

نحن ـ إذن ـ نصدق تماماً مسألة صعود الإنسان بشحمه ولحمه إلى السماء كأمر وارد وحاصل ، أما طول المدة أو عدمها فذلك لا ينقض المبدأ .

أما مسألة ارتباط نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض بقيام الساعة، فالنصوص فى هذه المسألة من القرآن الكريم محتملة وغير قطعية الدلالة، وقد وردت فى السنة النبوية المطهرة ، ولكنها غير معلومة من الدين بالضرورة فلا نكفر من يتأبى عليه فهمها ، وقد أراد الحق سبحانه الرحمة بالخلق ؛ لذلك فكل شىء يقف فيه العقل ولا يزيد به حكم من الأحكام يأتى به الله فى أسلوب لا يسبب الفتنة . فإن صدقنا أن عيسى رفع فلن يزيد ذلك علينا حكماً ولن ينقض حكماً، ولذلك جاء الحق سبحانه بمسألة الإسراء بنص قطعى، أما مسألة المعراج فلم تأت نصاً فى القرآن بل جاءت التزاماً لأن الحق سبحانه قال :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة النجم)

وهكذا فالإسراء آية أرضية، والمعراج آية سماوية . والآية الأرضية يمكن أن يقيم رسول الله الدليل عليها، وقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ووصفه لهم بقوله سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴿١﴾ ﴾ (من الآية ١ سورة الإسراء)

لقد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم أوصاف القوافل التى رآها فى طريق العودة، إذن كان الإسراء آية أرضية، أما الآية السماوية وهى المعراج فجاءت التزاماً وكذلك أمر رفع عيسى عليه السلام، فمن يرى أن ذلك جاء من طلاقة قدرة الله فهو يصدق ذلك. ومن يقف عقله نقول له : إن وقوف عقلك لا يخرجك عن الإيمان واليقين . وعندما نتأمل بالدقة اللغوية كلمة « توفيتنى » نجد « توفاه » قد تعنى أماته، فالحق سبحانه يقول :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴿١١﴾ ﴾ (من الآية ١١ سورة السجدة)

والحق سبحانه وتعالى يقول أيضاً :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا

﴿ ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

إنه سبحانه يسمى النوم وفاة ، وسماه - أيضا - موتاً . وهو أمر فيه إرسال وفيه قبض . ومعنى الموت فى بعض مظاهره غياب حس الحياة ، والذى ينام إنما يغيب عن حس الحياة ، إذن فمن الممكن أن تكون الوفاة بمعنى النوم . ويقال أيضاً عن الدَّين توفيت دَينى عند فلان أى أخذت دَينى كاملاً غير منقوص . وكذلك أمر قتل المسيح قال فيه الحق جل وعلا القول الفصل :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة النساء)

ونعرف أن الموت يقابله القتل أيضاً ، فالحق يقول :

﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

فالموت هو خروج الروح مع بقاء الأبعاض سليمة ، أما القتل فهو إحداث إتلاف فى البنية فتذهب الروح . وقد قال الحق على لسان المسيح : « فلما توفيتنى » أى أخذتنى كاملاً غير منقوص . وهذه مسألة لا تنقض الرفع . ونعلم أن كل ذلك سيكون مجالاً للحوار بين عيسى ابن مريم والحق سبحانه يوم المشهد الأعظم جاء به القرآن لنا ليخبرنا بالذى يُثَبِّت صدق الإيمان .

إن عيسى عليه السلام يقول عن نفسه : إنه مجرد شهيد على قومه فى زمن وجوده بينهم ، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فالرقابة على القوم تكون لله ، فالحق سبحانه شهيد دائماً ورقيب دائماً ، ولكن عيسى ببشريته يقدر أن يشهد فقط ، والله القادر وحده على أن يشهد ويغير ويمنع . ويخبرنا الحق من بعد ذلك بما جاء على لسان عيسى ابن مريم فى قوله الكريم :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾